

الباب الخامس عشر

صدقه أبي تمام بعصره

١ - العصر

(١) كان بدء العصر العباسي حدا فاصلا بين لونين من ألوان التاريخ في الدولة الإسلامية . ففى عهد الخلفاء الراشدين كان التفاعل بين عناصر هذه الأمة ، المتضاربة خلقا ، وطبعا ، وميولا . واستمر هذا التفاعل قويا فى عهد الأمويين . وكانت تهب لهذا التفاعل قوة الفاتح ، وسورة الدين . وكان الأمتزاج سريعا ، وجدته أخاذه ، لا تكاد تدع للجاعات اختيارا فى مقاومته ، وتنهبها إلى أجناسها وعصبياتها . وكان يغلب على هذه الأمم جميعا سلطان دين سمح ، أخذ بالنفوس ، وعدل محبوب يقوم به الخلفاء أول الأمر .

(ب) حتى إذا استيقظت العصبية القديمة بين العرب ، فى عهد عثمان ، الخليفة الثالث ، واستحال الحكم إلى وظيفة تطلب للغنم ، ويعمل فى الدفع إلى الاستئثار بها إرث الماضى ، مما هو قبل الإسلام ، وسقط الخليفة تحت سيوف الثائرين ، أهتزت تلك المعانى العظيمة الدينية التى قام عليها نظام الحكم . ثم أنهارت كما ينهار الصرح الشاخص ، وزلزل الإسلام وأهله ؛ زلزلة كادت تودى بدولته لولا يد الأمويين القوية ، التى أتاحته لهذه الدولة البقاء ، على أساس من الحزم والقوة والبأس ، أكثر من بقائها على أصول من الإيمان والحب .

فلم يبن الإسلام فى الصدور ، ولكن وهنت فكرة قيام الدولة عليه ، واستمر الناس بأثر من الدفعة الأولى ، متجهين فى رعاية وحدة الأمة على مدد من التراث الدينى القديم ، ومن الاتجاه النفسى الذى خلقته تعاليم معلمهم الأول من النبىؐ ، والخلفاء ، والصحابة . يحفظه عليهم ماضى بوه لهم من مثل فى الإيمان بما عملوا له . فاستمر الأمتزاج والتفاعل قويين ، وأتصل ذلك فى غير عبء بصرخات الخارجين على الجماعة بين لحظة وأخرى . إلا أن تسلط الأمويين ، القائم على معنى الملكية الدنيوى ، وذلك الخلف الذى كان يدب بينهم وبين آل بيت النبىؐ ، وما كان يتهى إليه هذا الخلف من جرائم تملأ التاريخ ، كان يلقى النور على استبداد تؤخذ به الناس أخذا .

كما أن عصبيتهم التي تعدت العرب إلى غيرهم من الأجناس ، التي تعيش تحت إمرتهم ، أخذت تهدئ من حدة التفاعل ، وتبيّ لتميزات جديدة بين هذه الأجناس المختلفة . فإذا بالوحدة الدينية التي كانت تربط الأجناس تأخذ في الانحلال شيئا ، لتحل محلها قوة أخرى هي قوة حفظ النوع وحماية الكيان . فإذا بالفصائل ، والعشائر ، والأمم تضع المعنى الديني جانبا وتجعل نصب عينها المعنى العنصري .

(ج) ويكون من هذا كله سقوط الدولة الأموية ، تسمح بسقوطها لمعركة مقنعة أولا ، تدور بين الفرس والعرب باسم بيت النبي . حتى إذا تغلب العباسيون وجَدَ الفرس في ظل عرشهم ملجأ يعملون فيه على هدم السلطان العربي . وكان الخلفاء يحسون منهم ذلك ، فينكثون بهم حفظا لعروشهم ، فأبو مسلم الخراساني ، والبرامكة ، والفضل بن سهل ، والأفشين لم يكونوا جميعا إلا طلائع هذه الحركات الخفية ، التي كانت تعمل في نفوس العناصر في ذلك الزمن .

ولقد بلغت هذه المعركة أشدها في عهد المأمون ، إذ كانت قد بدأت تصرّح عن وجهها في محاولة الفرس نصر المأمون على الأمين ، وحفظه في خراسان لتكون الخلافة تحت سلطانهم . وشعر العرب يومئذ شعورا مرقعا بما فمده بسقوط الأمويين ، وتحطيمهم بيد الفرس ، فكان ردّهم على ذلك تلك الثورات العارمة في معظم الأقطار الإسلامية ، التي اضطرت المأمون إلى استخلاف عليّ ابن موسى الرضا على ولاية عهده ، وحمانه على قتل الفضل بن سهل ، والنزوح عن خراسان إلى بغداد . فسكنت الثورات العربية شيئا ، ولكن أخذت تستيقظ ثورات أخرى أعجمية ، كثورة بابك الخرمي سنة ٢٠١ . وأخذ الصراع يدور ثانيا خفيا بين العرب والفرس . وأيس شيء أشدّ حقدا من كل منها على الآخر .

ولكن سلطان العرب أخذ يضؤل ، وإن كُلفوا حماية أطراف الدولة ، والقيام على إخماد الثورات . وأتضح هذا الخذلان بقتل المتوكل .

ومن هنا أخذت المعركة تسفر ، ولحق المتنبي آخروجهما ، فأزّل حقه ونقمته ، في عجلة وقسوة ، على قومه ، لما كان يرى من أنهم يستطيعون الخلاص من أعدائهم ، ولكنهم لا يعملون للخلاص . فيقول المتنبي :

وإنما الناس بالملوك وما تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذم

في كل أرض وطئتُها أمُّ تُرعى بعبء كأنها غم
يستخشن الخزَّ حين يلبسه وكان يُبْرِى بظفـره القلم

ولحق أبو العلاء قومه ، وقد تَمَّت الهزيمة ، ولم يبق إلا الحطام والأشلاء ، فبكاهم بكاء اليأس ، وأنجده إلى فلسفة هزيمة عشيرته أمام الحياة . وكانت حياته لحياتهم في أيامه صورة ومثلا .

أما أبو تمام فقد لحق الصراع إبان اضطرامه ، والنفوس تغلى ، والعرب يحسون يومئذ حاجتهم إلى الاستعانة بما يستعين به أعداؤهم من مادة ، وسلاح ، وعلم ، وفن . فكان معنى المعركة ، يتنقل بين ميادينها ، مضطربا بين اليأس والأمل ، عاملا على التحصيل ما أستطاع .

(د) وليس شيء حافزا في صراع ، شرا من حماية الذات وحفظ النوع ، ولقد كان وجود هذا العصر كله رهنا بهذا الحافز ، ونتاج ذلك الصراع . فإن الحياة لا تحلو في يوم حلاوتها يوم تهتد ، وأثر هذا الشعور أبدا ، تهالك على الحياة وغلو في حبسها ، وإغراق في الإحاطة بها ، وذهاب في كل حس إلى أبعد غاياته ، في غير آثران وفي أثره .

وهذا ما يرى واضحا في كل شيء في ذلك العصر . تراه في الحقد على الخصم ، كما تراه في الحب ، وتراه في طلب العلم ، وتراه في الحرب . تراه في إغراق في المدح اليوم ، وفي إغراق في ذم ممدوح الأمس . وتراه في تلك القسوة العنيفة في معاملة الأعداء . وتراه في الصلب على الأخشاب ، والتثيل بالميت . وتراه في إحراق المدن وذبح أهلها ، وخفة هذه كلها على النفس ، والتلذذ الغريب بمآها ، وعدم تحزك أي شعور من رحمة .

كانت الدنيا يومئذ تعج بالحياة ، وتقدر فيها النفس الحلو والمتر قدرا مضاعفا ، ولكن ليس فيها شعور من رحمة ، ولا معنى إنساني إلا في نفوس أولئك الذين باعدوا بين أنفسهم وبين العراك ، وقليل ما هم .

كان هذا العصر داميا . ويكفى أن تقرأ كتابا من كتب التاريخ لترى المعارك لا تكاد تنقف ، وكان هذا العصر عالما ، ونظرة في كتاب كتاريخ بغداد تلقى في الروع أن هذه الأمة عن بكرة أبيها كانت تطلب العلم ، وتهالك في طلبه . وكان هذا العصر غارقا إلى الأذقان في تحقيق اللذة ، جسمية وعقلية ، يطلبها في غير هواة ، ويكب عليها في استسلام ونهم . حتى فلسفت اللذة الجسدية ، وتعبد بها جماعة كالخزمية .

ولا تكاد تلوح بادرة من حس في نفس أحدهم حتى يندفع وراءها ، في غير تذبذبه إلى سواها حتى ليتضارب مع نفسه .

أما حطام هذه المعركة ، ومن خرجوا منها بجذلات وخيبة ، فمنهم الزاهدون واليأسون ، كأبي العتاهية .

(هـ) عصر مصطبغ بالدم وشعر مثله : وأبو تمام ثمرة هذا العصر بخيره وشرهه . فشعر أبي تمام مصطبغ بالدم كما كان عصره مصطبغا بالدم ، ولا يكاد يثير شاعريته شيء كما تثيرها الحروب والدماء . وأجمل شعره وأعرقه في الشاعرية ، هو ذلك الذي يصف فيه خرابا . أو تحريقا . وهو حين يفرق في ذلك لا يكاد يمس قلبه معنى إنساني .

(١) وإن في شعره في وصف عمورية لمثلا واضحا :

لقد تركت أمير المؤمنين بها	لنار يوما ذليل الصخر والحشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى	يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت	عن لونها أو كأن الشمس لم تغيب
ضوء من النار والظلماء عاكفة	وظلمة من دخان في ضحى شحيب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت	والشمس واجبة من ذا ولم تغيب

ولا أظن شاعرا يهيا له في وصف هذا الحريق أكثر مما هي لأبي تمام . ولو وقف عند هذا لقنا شاعر يصف فلا عليه . ولكنه لا يقف عند الوصف ، بل هو يهلل لهذه النار ، ويهتف لهذا الخراب ، بروح حاقده ، الإنسان معه أبعد ما يكون عن إنسانيته :

ما رُبُّ مَيَّةَ معمورا يطيف به	غيلان أبهى رُبِّي من ربِّها الحرب
ولا الحدود وإن أديمين من نجل	أشهى إلى ناظري من خدّها التراب
سماجة غنيت منا العيون بها	عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه	جاءت بشاشته من سوء منقلب

وأبو تمام في هذا الحس النفسى بجمال هذا المنظر الوحشى ، مخلص يعبر عنه تعبيرا يهزك ، بل هو يرضيك أيضا ، وتأخذك منه روعة الصورة . ولأبيات القصيدة جميعها ، ذلك الجمال الذى يحمل النفس على إعجاب بالشر ، وقبول لذلك الحقد الشرير الذى يملؤها ، وأستساعة لمظهر من مظاهر الوحشية تأباه بقية من الخير فى الإنسان ، حين يخلص إلى نفسه ، وينفك عنه إसार ذلك الجمال

الشعري للقصيدة شيئا . فإذا أردت لهذا علته عند أبى تمام ، وجدها في حماية الذات . وهي التي تستشفها وتندرج إليها من وراء قوله :

وحسنٌ مُنْقَلَبٌ تَبَدُّوْ عَوَاقِبُهُ جاءت بِشَاشَتِهِ مِنْ سَوْءٍ مُنْقَلَبٍ

وهي أكثر وضوحا في قوله :

إِنَّ الْحَمَامَيْنِ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمْرٍ دَلُّوا الْحَيَاتَيْنِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشْبٍ



(٢) الإنسان مولع بالحياة يتعشقها ويمبدها ، ويتحسس مظاهرها حيث هي ، ودلالاتها حيث تكون . فيراها جمالا ، ويراه خيرا . فهو يرى الوردة الوداعة بين أشواكها الرادعة ، فيحس جمالا وشوقا ، وهو يطلبها حيث هي ، رجلا كان أو طفلا ، وما جذبه إليها إلا تلك الألوان التي تمثل الحياة بقوتها ، وروزها في صفحة الوجود . وهو يحب تلك الطراوة منها ، لأنها تشعره بحاجتها إلى حمايته ، وتظهره بمظهر القادر القاهر الحامى .

وهو يرى الأجمة المشتبكة ، والطود الراسخ ، والبحر يهدر ، فترقه ، ويحس وهو في الروع جمالا لاحذ له . ذلك لاشيء إلا لأنه رأى صورة من صورة الحياة والقوة ، تضعف إلى جانبها سطوته ، ويتبين إزاءها خوره ؛ فهو يرتاع لضعفه ، ويقدسها لجبروتها ، ويحب منها هذه الحياة العارمة ، والقوة الصارمة ، لأنه يحب الحياة ، وهو مفطور على هذا الحب .

وهو يشفق حين يرى قويا يتمدد حياته ، ويلحقه الرعب ، ويدفعه حبه حياته إلى شيء من نسيان إجلال قوة غيره . فإذا أتيت له الغلبة كان جبارا لا يعرف الرحمة . ذلك لأن وجوده كان في كفة القدر ، وهو أبعد من أن يتعشق ذلك المعنى العام للحياة ، دفاعا عن حياته الخاصة . فهو فرح طروب ، وهو قاس حاقد ، يبلغ حد الوحشية في إشباع شهوته وإرواء غلته . وهذا الشعور الآخذ بنفسه ، يتحكم عنده في تصوير الجمال ، وفي إخراج مثله العليا ، وفي تكييف مفهوم الخير .

وهذا هو العامل العظيم الذي كان يعمل في حياة أبى تمام بوصفه فردا من أمة بينت قبل ما بين أجناسها . وهو أيضا العامل القريب الذي كان يعمل في نفسه ، يوم كانت هذه الأمة تدفع عن أطرافها عدوا قويا يريد أن يلتهمها . فقد حضر أبو تمام هذه الموقعة . كما يقول صاحب الفخرى مع المعتصم .



(٣) قصة الأفسين تحرك الدموع ، وتلين الصخر . ولا أعرف كيف لم تحرك شاعرية أبي تمام إلا بما حركتها به ، من ذلك الحقد الذي يعافه الطبع السليم . وإن في مجموع الصورة النفسية التي يتركها لنا التاريخ عن الأفسين ، روحا طيبا ، ودماثة خلق ، إلى جانبها شيء من الطمع كان سبب نكال صاحبه . والقصة كلها تحرك شعورا من الرحمة ، جديرا بأن تلتقفه نفس شاعر فتشمر به ثمرة تبقى على الأيام خالدة : فيها تصوير للضعف الإنساني ، الذي لا ينقمه الإنسان على صاحبه ، لأنه مقرون ببعض الوقار ، مصحوب بقدس من العظمة والنصر ، ولأن إجرام صاحبه يلابسه كثير من الشك ، ويخفف من أثره ريبة مائلة .

ولكم كان أولى بأبي تمام أن يصور لنا هذا جميعا في قصائده فيه ، وأن يخرج لنا منه بلإنسان ، إلا يكن جديرا بالحمد ، فليس قبينا بالحقد المرير . ولكم كان خيرا له لو خلط فيه الدمعة بالنقمة ، فتخرج قصيدته متلازمة مع الصورة التاريخية .

وإن الأفسين لأخف عندي جرما من ما كبت شكسبير ، مع ما أسبغ شاكسبير على بطله من ظلال الرحمة ، وتخفيف الحرم . فعذر هذا عند شكسبير ، الضعف الإنساني ، وعذر الأفسين عند التاريخ ما بينت فوق الضعف من أسباب البطولة ، وأخلاق تكبرها النفس . وما أشبه القصتين : ولكن أبا تمام كان أبن ذلك العصر الدامي ، المندرج فيه ، المأخوذ بما لا يؤخذ به البعيد عنه . والمقارنة بين ما كتب أبو تمام في هذا ، وبين ما كتبه ابن الأثير المؤرخ ، تعود بالخسار على الشاعر . قال أبو تمام ، وقد كان مدح الأفسين قبل ذلك :

جالت بِخَيْذَرٍ جَوْلَةُ الْمِقْدَارِ	فأحله الطغيان دارَ بَوَارِ
كم نعمة لله كانت عنده	فكأنها في غُرْبَةٍ وإِسَارِ
كُتِبَتْ سَبَائِبُ لُؤْمِهِ فَتَضَاءَلَتْ	كتضائل الحسنة في الأطوارِ
موتورةٌ طلب الإلهُ بشارها	وكفى ربَّ الشارِ طالبَ نارِ
صادى أمير المؤمنين يَرْبُرج	في طيه حمة الشجاع الضارِ
مَكْرًا بَنَى رُكْنِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ	وَطَدَ الْأَسَاسَ عَلَى شَفِيرِ هَارِ
حتى إذا ما الله شَقَّ غِبَارَهُ	عن مستكن الكفر والإصرارِ
ونحا لهذا الدين شَفْرَتَهُ آنثى	والحقُّ منه قاتى الأظفارِ

ثم يمضى فيها الى أن يصل إلى وصف صلبه وإحراق جسده، فتفجر شاعريته :

ما زال مير الكفر بين ضلوعه	حتى أصطلى سر الزناد الوارى
نارا يساور جسمه من حرها	لهب كما عصفت شق إزار
طارت لها شعل يهدم لفحها	أركانها هدمًا بغير غبار
فصلن منه كل مجمع مفصل	وفعلن فاقرة بكل فقار
لله من نار رأيت ضياءها	ضياق الفضاء به على النظار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك	ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلّى لها حياً وكان وقودها	ميتاً ويدخلها مع الفجار
وكذاك أهل النار في الدنيا هم	يوم القيامة جلّ أهل النار
يا مشهداً صدرت بفرحته إلى	أمصارها القصى بنو الأمصار
رمقوا أعالي جذعه فكأنما	وجدوا الهلال عشيّة الإفطار
وأسنشقوا منه فتارا نشره	من عنبر ذفير ومسيك دارى
وتحدثوا عن هلكته كحديث من	بالبدو عن متابع الأمطار
وتباشروا كتبائر الحرمين في	حجم السنين بأرخيص الأسعار
كانت شماتة شامت عارا فقد	صارت به تنضو ثياب العار

ما أروع هذا الشعر وما أجمله ! إنه ليدفع الإنسان الى حبه على الرغم من قسوته وما فيه من طار . وتنبه ذهن أبى تمام ذلك التنبه ، البادى فى بيته الأخير ، الى ذلك العار الناشئ عن شماتته بميت ينبئ عن قدرة ، وعن حب للتملص من ثقل قد يلزمه له التاريخ . وظنى أنه كان يفضل التخلص منه ، لو لم يكن يدفعه إليه ذلك الشعور الباهظ ، الذى كان يحس به كل فرد يومئذ من هذه الأمة ، من جراء تلك المعركة الناشئة بين الأجناس .

*
*
*

أما فن ابن الأثير المؤرخ ، فى هذه المأساة ، فخير من فن الشاعر . قال ابن الأثير عن الأفيشين وهو سجين : " وكان (الأفيشين) قد أنفذ إلى المعتصم يطلب إليه من يثق به ، وأنفذ إليه (المعتصم) حمدون بن إسماعيل . فأخذ (الأفيشين) يعتذر عما قيل فيه ، وقال : قل لأمر المؤمنين : إنما منى ومثلك كرجل ربي عجلا حتى أسمته وكبر ، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه ، فعرضوا بذبحه فلم يحبهم . فاتفقوا جميعا على أن قالوا : لم تربى هذا الأسد ، فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه ؟

فقال لهم : إنما هو عجل . فقالوا : هذا أسد ، فسل من شئت . وتقدموا إلى جميع من يعرفونه ، وقالوا لهم : إن سألكم عن العجل فقولوا له : إنه أسد . وكلما سأل إنسانا ، قال : هو سبع ... فأمر بالعجل فذبح ... وإني أنا ذلك العجل . كيف أقدر أن أكون أسدا . الله الله في أمري . قال حمدون : ففقت عنه ، وبين يديه طبق فيه فاكهة ، قد أرسل به المعتصم مع أبنة الوائق ، وهو على حاله ، فلم ألث إلا قليلا حتى قيل إنه يموت ، أو قد مات . فحمل إلى دار إيتاخ فمات بها ، وأخرجوه واصلبوه على باب العامة ، ليراه الناس . ثم ألقي وأحرق بالنار .

بذكر هذا ابن الأثير بعد ذكر الشكوك التي حامت حول شهته ، ويعقب عليه بأشياء تدفع شيئا من تهمة الأفسين . والقصة ، كما نقلها ابن الأثير ، يجرى فيها روح إنساني مليء بالرحمة ، وتنطبع بطابع فني يجعل قصيدة أبي تمام إزاءها العوبة من الألاعيب الفظة ، حين يقصد إلى الحكم على فنه فيها . وتأمل تلك الإشارة إلى طبق الفاكهة يحضره الوائق إليه بأمر المعتصم ، وذكر الموت بعدها مباشرة ثم الصلب والإحراق . يقابل ذلك عند أبي تمام قوله في قصيدته :

يَا قَابِضًا يَدَ آلِ كَاوُوسَ عَادِلًا	أَتَبِعَ يَمِينًا مِنْهُمْ بَيْسَارِ
الْحَقِّ جَبِينًا دَائِمًا رَمْلَةً	بَتَفًا وَصَدْرًا خَائِفًا يَصْدَارِ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ إِنَّمَا تُلْقِيهِمْ	فِي بَمِضٍ مَا حَفَرُوا مِنَ الْآبَارِ
لَوْ لَمْ يَكِدْ لِلْسَامِرِيِّ قَبِيلُهُ	مَا خَارَ عَجْلُهُمْ بِغَيْرِ خَوَارِ
وَتَمُودُ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فِي رَبِّهِمْ	لَمْ تَرَمِ نَاقَتُهُ بِسَهْمٍ قُدَارِ

هذه الحرارة في طلب التنكيل بأعداء الخلافة قد تؤخذ على أنها تصوير لشعور الخليفة من أعدائه . وهو ما لا يقتضيه على الأقل ظاهر الأمر من التاريخ ، كما رأينا في إرسال الوائق بطبق الفاكهة إلى الأفسين في سجته .

في تصوير ابن الأثير للأحداث غاية ما يطمح إليه شاعر كأبي تمام . ولكن أبا تمام لم ير إلا الجريمة ، ولم يصور إلا النار تلتهم جسد هذا البطل الذي أراح الخلافة من شر ظل مصلتا عليها اثنين وعشرين عاما .

ذلك الروح الوحشي الذي أملى على أبي تمام شعره ، هو ابن ذلك الصراع الرهيب الذي كان مشبوا بين الأجناد يومئذ في الدولة الإسلامية . وهو الذي كان يكون أخلاق الناس ، ولا سيما الشعراء الذين يقولون بانفعالات تفوق أنفعالات غيرهم من الناس .

٢ - شعر يقارب المادية

(١) اقتران مظاهر الجمال الحسى بمظاهر القبح النفسى : وهذا الذى باءد بين فن أبى تمام وبين المثالية ، قُرب بينه وبين الجسدية . فإنَّ هذا العصر ، كما قلت ، كان عصر إغراق فى كل شىء ، وحس مضاعف بالحياة . فهو إن عدم هذا الجمال النفسى ، والأنسجام الخلقى ، لم يعدم جمالا من نوع آخر ، يأتى من قبيل الرؤية ، والسمع ، والشم ، والحواس جميعا . إنَّ أجمل ما صور به مصور عصرنا من العصور قول مستشرق فى وصف حياة الناس فى هذا العصر : " كانت الحياة قصيرة ولكنها حلوة " .

فشعور الناس إذ ذاك بمعزة الحياة وغلوها ، كان دافعا على التهاك عليها ، واتهاب لذائذها وجمالها . وإنك لترى أثر هذا فى شعر أبى تمام فى ذلك التصوير المنتشى لمظهر من مظاهر الرهبة قد لا تستسيغه العين ، ولا يرضاه الحس ، مقترنا بمظهر من مظاهر الجمال التى تمس القلب مسا ، وتحمل إليك مع الجفوة القاسية أريجحة صافية ، تخفف من وقعها فى النفس . وإنك لتستطيع أن تجد هذا واضحا فى هذه الأبيات من قصيدته البائية التى ذكرت منها شيئا . يقول :

ماربُع مِئة معمورا يُطِيفُ به غَيْلَانُ أبهى رُبِّي مِن رَبْعِها الحَرِيبِ
ولا الحدود وإن أديمين مِن نَجِيلِ أشهى إلى ناظرى مِن خدِها التَّربِيبِ

ويقول :

لَبِيتَ صَوْتَا زِبْطَرِيًّا هَرَقَتْ لَهُ كَأْسَ الكَرى وَرُضَابَ الحَرْدِ العُربِ
عداك حُرَّ الثغورِ المستضامةِ عن عن بَرْدِ الثغورِ وعن سَلْسَا لَهَا الحَصْبِ

ويقول :

والحربُ قائِمةٌ فى مَأْزِقِ الحَبِيبِ تَجُشُّو الرِّجَالُ به صُغْرًا على الرِّكَبِ
كَمْ نَيْلٍ تَحْتَ سَنَاها مِن سَنَا قَمَرِ وَتَحْتَ عَارِضِها مِن عَارِضِ شَنِيبِ
كَمْ كانَ فى قُطْعِ أسبابِ الرِّقَابِ بها إلى المِخْدَرَةِ العِذراءِ مِن سَبَبِ
كَمْ أحرَزَتْ قُضْبُ الهِنْدَى مُصَلَّةً تَهْتَرُ، مِن قُضْبِ تَهْتَرِفى كُتَيْبِ
بِضٍّ إِذا أَنْتَضَيْتِ مِن حُجْبِها رَجَعَتْ أَحَقُّ بِالْبَيْضِ أَبْدانًا مِن الحُجْبِ

فانظر كيف قرن كل صورة من صور الخراب والحرب والدمار ، بصورة من صور الجمال ؟ وهو فيها جميعا يستعين بوصف المرأة وجمالها . فيذكر في الأول بحب مية وغيلان ، ويفجر بقصتهما ذلك النبع من الشجن الذي لا ينتهى ما دام الإنسان إنسانا ، ويشير إلى الثغر الشنب ، والمخدرة العذراء ، والقضب المهترئة في الكُثْب ؛ يستعين بها جميعا على تحقيق الجمال لهذا الوصف الرهيب للنار المتدلعة ، والحرب الوارية . وفي هذه الأبيات جميعا فوق ما بينت من اقتران القبح النفسى بالجمال الحسى ، من البديع ، والجناس ، والطباق ، ومراعاة اللفظ ، محاولة أخرى من محاولات تحقيق الجمال بأساليب لفظية ، أقرب إلى تحقيق الجمال الجسدى منها إلى تحقيق جمال الروح .

ترضى الأذن والعين ، وأثرها في القلب ليس مباشرا ، ولكنه أثر من آهتزاز الحواس .

ذاك معنى من معانى الهام الحياة ، ومحاولة التعبير عنها بقدر الاستطاعة ، في حدود ضيقة من وحدة البيت ، ووحدة القافية ، وآخرت المعانى .

وهناك معنى آخر يتصل بهذا ، ويؤلف ناحية هامة من نواحي فن أبي تمام . وذلك هو حس جمال الطبيعة .

(ب) حس أبي تمام بجمال الطبيعة : يقول أبو تمام فى وصف الربيع :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرُّمُ	وَعَدَا الثَّرَى فِي حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ
نَزَلْتُ مَقْدَمَةَ الْمَصِيفِ حَمِيدَةً	وَبَدُ الشِّتَاءِ جَدِيدَةً لَا تُكْفَرُ
لَوْلَا الَّذِي غَرَسَ الشِّتَاءُ بِكَفِّهِ	قَامِي الْمَصِيفُ هَشَامًا لَا تُثْمِرُ
مَطَرٌ يَذُوبُ الصُّحُوفُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ	صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الْغَضَارَةِ يَقْطُرُ
غَيْثَانِ : فَلَا نَوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ	لَكَ وَجْهُهُ وَالصُّحُوفُ غَيْثٌ مُضْمَرٌ
وَنَدَى إِذَا آذَنْتَ بِهِ لِمِ الْمُثْرِى	خَاتَ السَّحَابِ أَتَاهُ وَهُوَ مُفَدَّرُ

أَوَّلَا تَرَى الْأَشْيَاءَ إِنْ هِيَ غُيِّرَتْ	سَمَّجَتْ وَحُسْنُ الْأَرْضِ حِينَ تَغْيَرُ
يَا صَاحِبِي تَقْصِّصْ نَظْرِي كَمَا	تَرَى وَجْهَ الرِّوْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرَى نَهَارًا مُشْمَسًا قَدْ زَانَهُ	زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْمَرُ
دُنْيَا مَعَاشٍ لِلْوَرَى حَتَّى إِذَا	حَلَّ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا هِيَ مَنَظَرُ
أَضْحَتْ تَصَوُّعُ بَطُونِهَا لظُهُورِهَا	نُورًا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوَّرُ

مِن كُلِّ زَاهِرَةٍ تَرَفَّقُ بِالنَّدَى فَكَأَنَّمَا عَيْنُكَ إِلَيْكَ تُحْدَرُ
 حَتَّى غَدَتِ وَهْدَاتُهَا وَنِجَادُهَا فَتَيْنِ فِي حُلْلِ الرَّبِيعِ تَجْفَرُ
 مُصْفَرَّةٌ مَحْمَرَةٌ فَكَأَنَّمَا عَصَبُ تَيْمَنٍ تَارَةٌ وَمُضْضَرُ
 مِنْ فَاغِغٍ غَضَّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ دُرٌّ تُشَقِّقُ قَبْلُ ثُمَّ تُزَعَّرُ
 أَوْ سَاطِعٍ فِي حُمْرَةٍ فَكَأَنَّمَا يَدْنُو إِلَيْهِ مِنَ الْهَوَاءِ مُعْضَرُ
 صَبْغُ الَّذِي لَوْلَا بَدَائِعُ لَطْفِهِ مَا عَادَ أَصْفَرٌ بَعْدَ إِذْ هُوَ أَخْضَرُ

هذا الحس الرائع بجمال الطبيعة، المستقر في أعماق نفسه، وتلك الريشة القديرة البارعة في التصوير، وذلك الإدراك للألوان والأضواء، كل أولئك كَوْنَتِ صورة للربيع لم تحظ العربية بمثلها قبل أبي تمام أو بعده على ما أعرف. أبو تمام يوم قال هذا، كان متأثراً بذلك الحس المضاعف للحياة وتقديرها. وكان إليه، متأثراً بفطرة تميزه عن غيره من الشعراء في توجيهه هذا الاتجاه نحو الطبيعة. وهنا يستطيع الإنسان أن يلمس فن أبي تمام السامي، البعيد عن التأثير بتلك المؤثرات النفسية الخاصة، التي تحدد عنده معنى الخير والشر، وتكيف الخلق.

وأبو تمام شديد الحس بجمال الطبيعة، حساً يخالطه حتى لا يكاد يتركه في قصيدة. فهو لا يكاد يلمح فرصة يمكن أن يزج فيها بالطبيعة حتى يفعل. فإذا وصف جواداً قال:

يَدٌ يَسْتَدِلُّ الدَّهْرُ مِنْ نَفْحَاتِهَا وَيَخْضَرُ مِنْ مَعْرِفِهَا الْأَفْقُ الْوَرْدُ
 وإذا أراد أن يصف رخاءه قال:

حَتَّى إِذَا رَوَّضَ نَفْسِي بِهِ دُبَابُهُ فِي مُوْنِي زَاهِرِ
 وإذا تحدث عن جمال وقع العطايا قال:
 وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ
 وإذا دعا لدار حبيبته قال:

لَا مَرَّ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَفِي أَحْشَائِهِ لِمَحَلَّتِكَ غَمَامُ
 حَتَّى تَعْمَمَ صُلُغُ هَامَاتِ الرَّبَا مِنْ نَوْرِهِ وَتَازَرُ الْأَهْضَامُ

وهكذا يمازج جمال الطبيعة نفسه فلا يكاد يخلص منها.

وحس أبي تمام بالطبيعة لا يقف عند الوصف، ولكننا يتعداه إلى أثر جمالها في النفس فيقول:

* نَوْرٌ تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تُنَوِّرُ *

وشعره فيها ليس ذلك الشعر القائم على الأندفاع ، وإرسال النفس على سجيته ، وإنما هو وصف المتأمل ، الذى يسلط عقله على حسه ليتبينه ، وينظر فيه . فيقول بعد فكرة :

لولا الذى غرس الشتاء بكفِّه قاسى المصيف هشائما لا تُثمر

ويقول :

غيثان : فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمّر

ويقول :

أولا ترى الأشياء إن هي غيرت سُمجت وحسن الأرض حين تغيّر

٣ - أثر العنصرية وثقافة العصر

وأثر آخر من آثار العصر ، هو إصرار أبي تمام على استفتاح كثير من قصائده ببكاء ديار الحبيبة ، ومحاطبة الطلول ، برغم أنه زعيم المحدثين فى الشعر العربى . وكأنما كان يتحدى بذلك مذهب أبى نواس ، تحديا دافعه العصبية للعرب على العجم .

وكذلك وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وذكر الصحراء والآل والظلام ، وإغراقه فى ذلك أحيانا إغراقا يقارب بين شعره والشعر الجاهلى .

وأما تلك الصلة بين فنه وعصره ، العالم ، المثقف ، المتفلسف ، فتمثل فى طلبه المعنى الغريب طلبا مبالغا فيه ، واختياره اللفظ ، وإشارته الى بعض المذاهب الفلسفية ، كالجهمية ، والجعفرية ، واستخدام بعض ألفاظ الفلسفة ، كالجوهر والعرض ، وضربه الأمثال بأحداث فى التاريخ ، والرجوع إلى القرآن فى كثير من شعره ، والتأثر بالبديع اليونانى ، وفى محاولاته فى أغلب شعره إرضاء العقل مع القلب .

٤ - أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره

(١) ولم يقع حدث هام فى تاريخ الأمة الإسلامية فى حياة أبى تمام ، إلا سجّله ، وتغنّى به فى شعره : فإذا هوجمت ثغور المسلمين قال ، وإذا غزا المأمون الروم قال فى ذلك شعرا ، وإذا أنقسم الناس على أنفسهم قال ، وإذا خرج خارج فى الدولة قال ، وإذا فتح المعتصم عمورية قال ، وإذا مات من العرب عظيم قال ، وإذا أخذ عدو من أعداء الدولة قال ، وهكذا حتى إن معظم شعره يتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا ، ويبدى لنا صفحة منه فى صورة ناصعة ليست فى أسلوبها تشبه أسلوب المؤرخين ، ولكنها تمتاز بالبسط وطول النفس ، وتبين الأنفعالات النفسية التى كانت

تعمل في نفوس قومه يومئذ . بل إن شعره يتناول أحيانا تفاصيل لا يسعها التاريخ كما في وصف الخلاف الناشب بين أحياء من تغلب ، يفصله في قصائده في مالك بن طوق .

نخدم أبو تمام من هذه الناحية التاريخ ، حتى ليكمل شعره كتب التاريخ ، مع أن التاريخ لم يمن بأبي تمام العناية اللائقة بسيد شعراء العربية .

والحق إن حياة أبي تمام قد أمتزجت بالتاريخ العام ، وأختلطت به طوعا وكرها ، حتى كونت منه جزءا . وكما كيف التاريخ بموجاته تلك المبادئ الأولى النفسية والخلقية التي أنشعب منها فن أبي تمام وقوانينه الخلقية ، كذلك كَوْن ناحية موضوعية هامة في شعره . ذلك إن أبا تمام يلخص في حياة الأمة العربية عهدا لا يلخصه غيره . فهو ظاهرة من ظواهر حياتها ، أشبه شيء بالعضو من الجسم ، إذا انفصل عنه نقص شيئا .

(ب) وما زالت الأمم تعالج صدورها بالألم والأمل ، حتى تنجب شاعرا من صميمها يعبر عن بنات نفسها . وإن في شعر أبي تمام صورة لنفسية العرب يومئذ ، بما فيها من اضطراب لم يصل بها إلى حد القلق المحطم اليأس . هو صورة حية لهم بما فيهم يومئذ من طموح ، وعمل للاستفادة مما ورثوا عن الأمم التي غلبوها ، هو صورة للذكاء العربي بعد أن مد يده إلى آثار السلف ، هو صورة ماثلة لذلك الاستشراف الذي كانت تستشرفه العرب إلى قوة كادت تفلت من أيديهم . فهو ذاهب هنا ، وهو ذاهب هناك ، يحمد العربي القوي ، ويتغنى بتلك البطولة التي تأنس إليها النفس العربية ، وتمثل فيها صورة ماضيهم المحبوب ، العزيز عليهم بمثله وأساطيره ، في عهد يكاد ينفلت فيه زمام الأمر من أيديهم . هو صورة للعرب إذ ذاك ، وهم لا تزال فيهم بقية من إيمان بفضل قوة قد ترجع إليهم النفوذ والسلطان .

(ج) أبو تمام حلقة في تاريخ الأمة العربية لو أسقطتها لأحسست الثغرة الهائلة في تاريخها بين حلقتين ، إننا نستطيع أن نستغنى عن أبي نواس ، فننفي شعره من العربية ، فلا نكاد نشعر إلا أننا فقدنا عرضا من الأعراض ، ولونا من ألوان العهد . ولكننا لا نشعر أننا فقدنا جوهرها .

أبو تمام خطوة يجب أن تسبق المتنبي وتلحق مُسلما ، والمتنبي خطوة يجب أن تسبق أبا العلاء ، وأبو العلاء نهاية اليأس والبؤس المفلسف ، والجهد المحطوم لشعب تعب ، وحارب وانتصر ، حتى إذا خيل إليه أن أوان جنى الثمار قد حل ، لم يجد بين يديه شيئا .

لذلك أصغى العرب إلى أبي تمام، وأنصتوا لأغنيته، ووجدوا فيه صورة نفوسهم يومئذ فغلب على أيامه، وكشف ما يزيد على خمسمائة شاعرا كما يقول ابن رشيق. أما البحترى فكان أشبه بالظل للصورة، يكملها، ويعبر عن وجودها، ولكنه لا يغني عنها. إن الأمم تتنفس في بعض الأفراد.

يقول الصولي في كتابه أخبار أبي تمام^(١): "حدثني أحمد بن يزيد المهلبى قال: سألت أبي عن أبي تمام، وقد سمعني أبي وأنا ألاحى إنسانا في أبي تمام، فقال لى: ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا في أيام أبي تمام. فلما مات أبو تمام أقسم الشعراء ما كان يأخذه".

(١) أخبار أبي تمام للصولي (ورقة ٤٨).